ملامح الأوضاع الاجتماعية في وادي الفرع خلال النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري (١٢٥٠ ـ ١٣٠٠هـ / ١٨٣٤ ـ ١٨٨٤م)

أ. فائز بن موسى البدراني الحربي
أديب وناقد سعودي

تعريف بمنطقة الدراسة:

تقع منطقة وادي الفُرْع على خط عرض ٢٣°، وطول ٣٩°[(١)]، إلى الجنوب من المدينة المنورة على بعد حوالي ١٣٠ كيلاً تقريباً على يمين طريق الهجرة؛ وهو الطريق السريع بين مكة والمدينة للمتجه إلى مكة. واسمها القديم الفُرْع بدون كلمة (وادي)، ومن المتقدمين من ضبطها بضم الفاء وإسكان الراء (الفُرْع)، ومنهم من ضبطها بضمتين (الفُرُع)، وتنطق الآن (الفُرَع)، والكلمة على تنوعها اللفظي السابق تعني: فروع الأودية[(٢)].

وصفها ياقوت الحموي بأنها: قرية من نواحي المدينة عن يسار السُّقْيا[(٣)] بينها وبين المدينة ثمانية بُرُد[(١)]، وأنها قرية غَنَّاء كبيرة. كما

---

(١) دارة الملك عبدالعزيز وهيئة المساحة الجيولوجية السعودية، **موسوعة أسماء الأماكن في المملكة العربية السعودية**، (الرياض: ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م)، ج٥، ص٤٥٦.

(٢) عاتق بن غيث البلادي، **معجم معالم الحجاز**، (٥ مجلدات)، (مكة المكرمة: دار مكة للنشر والتوزيع، ط٢، ١٤٣١هـ)، ص١٣١٥؛ محمد بن صالح البليهشي، **وادي الفرع تاريخ وحضارة**، (المدينة المنورة: (د.ن)، ١٤٢٧هـ)، ص١٩.

(٣) السقيا: موضع قديم كان يسمى سقيا بني غِفار، وقد تحول اسمها إلى أم البرك في عصور =

ذكر أيضاً أن فيها عدة قرى ومنابر ومساجد لرسول ﷺ، وأنها أول قرية مارَتْ[٢] إسماعيل وأمه التمر بمكة. كما ذكر أن فيها عينين يقال لهما: الرَّبْض والنَّجْف تسقيان عشرين ألف نخلة[٣].

والذي يظهر أن المقصود هنا قرية أبو ضُبَاع، فهي التي ينطبق عليها هذا الوصف، وهي في أسفل وادي الفرع من جهته الغربية.

ووصفها البكري بأنها من أشرف ولايات المدينة، وأن فيها مساجد لرسول الله ﷺ، وأن النبي ﷺ نزلها مراراً، وأقطع فيها لِغِفَار[٤] وأَسْلَم[٥] قطائع، وأن صاحبها يَجْبي اثني عشر منبراً، منها منبر بالفُرْع، ومنبر بمَضِيقها، على أربعة فراسخ منها، ويعرف بمضيق الفرع[٦].

وقد سمَّى العينين **"أبو الرُّبْض والنَّجَفَة"** وذكر أنهما تسقيان أكثر من عشرين ألف نخلة، وأن عروة بن الزبير مات بها سنة ٩٤هـ، وقال أيضاً:

=

متأخرة، وهي قرية تقع أعلى وادي القاحة على الطريق القديم بين رابغ والمدينة. حمد الجاسر، **مجلة العرب**، س١، ج٩، ربيع الأول ١٣٨٧هـ، حزيران ١٩٦٧م، ص٨٥٧.

(١) بُرُد: جمع بريد، وهو مسافة طولية.

(٢) مارت: من الميرة، وهي التزود بالزاد.

(٣) شهاب الدين بن عبدالله ياقوت الرومي البغدادي الحموي، **معجم البلدان** (٥ أجزاء)، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م)، ٤/ ٢٥٢.

(٤) غِفار: قبيلة عدنانية حجازية تنسب إلى غفار بن مُلَيْل بن ضمرة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة، وهم قبيلة الصحابي أبي ذر الغفاري رضي الله عنه. أبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي ٣٨٤-٤٥٦هـ، **جمهرة أنساب العرب**، مراجعة: لجنة من العلماء، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م)، ص١٨٦.

(٥) أسلم: قبيلة عدنانية حجازية تنسب إلى أسلم بن أفصى بن عامر بن قمعة بن إلياس بن مضر. ابن حزم، **جمهرة أنساب العرب**، ص٢٤٠.

(٦) الوزير الفقيه: أبي عبيد، عبدالله بن عبدالعزيز البكري الأندلسي المتوفى سنة ٤٨٧هـ، **معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع**، حققه وضبطه: مصطفى السقا، (القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، شعبان ١٣٦٤هـ / يوليو ١٩٤٥م)، ج٣، ص١٠٢١.

"**وروى الزبير عن رجاله أن أسماء بنت أبي بكر - رضي الله عنهما - قالت لابنها عبدالله: يا بني اعمر الفرع. قال: نعم يا أمَّه قد عمرته، واتخذت به أموالاً**". فعمل عبدالله بن الزبير رضي الله عنه بالفرع عين الفارعة والسنام، وعمل عروة أخوه عين النهد[1] وعين عسكر، واعتمل حمزة بن عبدالله عين الرُّبْض والنَّجَفَة[2].

ونقل ياقوت الحموي عن أبي زيد البلخي وهو يتكلم عن وَدّان قوله: "**وبها كان أيام مقامي بالحجاز رئيس للجعفريين ـ أعني جعفر بن أبي طالب ـ ولهم بالفرع والسائرة ضياع كثيرة، وبينهم وبين الحُسَينيين حروب ودماء حتى استولى طائفة من اليمن يعرفون ببني حرب على ضياعهم...إلخ**"[3].

وذكر السمهودي: أن عين أم العِيَال تسقي أزيد من عشرين ألف نخلة، وأنها صدقة فاطمة الزهراء وأن عليها قرية، وقال - أيضاً - : "**والعمق وادٍ يصب في الفرع ويسمى عَمْقين، لبعض ولد الحسين بن علي، وقيل هو عين بوادي الفرع**"[4].

وروى السمهودي أيضاً: أن بالفُرْع ثلاثة مساجد، وأن الرسول ﷺ نزل

---

(١) لعلها: المهد، وهي غير المهد المعروفة. وتذكر وثائق وادي الفرع وجبة مهدي. وثيقة محلية، مبايعة حصة ماء من عين المضيق بوادي الفرع، ٧ رجب ١١٩٤هـ، مج: م/ع/ر/٧١.

(٢) الوزير الفقيه: أبي عبيد. عبدالله بن عبدالعزيز البكري الأندلسي المتوفى سنة ٤٨٧هـ، **معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع**، حققه وضبطه: مصطفى السقا. (القاهرة: مطبعة لجنة التأليف: والترجمة والنشر، شعبان ١٣٦٤هـ / يوليو ١٩٤٥م)، ج٢، ص١٠٢٠.

(٣) شهاب الدين بن عبدالله ياقوت الرومي البغدادي الحموي، **معجم البلدان** (٥ أجزاء)، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م). ج٥، ص٣٦٥؛ نورالدين علي بن عبدالله السمهودي، **وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى**، تحقيق: قاسم السامرائي. (مكة المكرمة: دار الفرقان للتراث الإسلامي، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م)، ج١، ص٤٦٨، وج٤، ص٥١٨.

(٤) السمهودي، **وفاء الوفاء**، ج٤، ص٢٢٨ وص٢٩٢.

الأكمة بالفُرْع فَقَالَ[١] في مسجدها الأعلى ونام فيه، ثم راح فصلى في المسجد الأسفل من الأكمة. وأن عبدالله بن عمر كان ينزل في المسجد الأعلى. وأورد أيضاً أن النبي ﷺ نزل في موضع المسجد بالبرُود من مضيق الفرع وصلى فيه[٢].

وتمتد منطقة وادي الفرع على امتداد الوادي الرئيس من الشرق إلى الغرب بطول ٧٠ كيلاً تقريباً، وفيها عدد من القرى والتجمعات السكنية والزراعية، من أهمها: **الريان، والسُّدْر ومسيطح، وشدَخ، والفَقِير، والمضيق، واليَسيرة، وأم العيال، وأبو ضبَاع، والحديقة، والملبنة، والبَحْرَة**[٣].

وتعد قرية الفقير - في هذا العصر - المركز الرئيس لمنطقة وادي الفرع، إذ توجد فيه أهم الدوائر الحكومية، مثل مركز الإمارة التابع لإمارة منطقة المدينة المنورة، والمحكمة الشرعية، والبلدية، والمستشفى الحكومي، فضلاً عما فيها من الدوائر الحكومية الأخرى، ومدارس التعليم العام[٤].

السكان:

تتسم منطقة الحجاز عامة، ومنطقة البحث خاصة بسمتين رئيستين، الأولى: أنها بلاد جبلية ذات أودية وعيون مائية تجعلها صالحة للاستقرار والزراعة وبناء التجمعات السكانية، كما هو الحال في خيبر والعلا وينبع

---

(١) قال: صيغة الماضي من يَقِيل، ومعناها: استراح وقت القَيْلُولَة: وهي الظهيرة.

(٢) السمهودي، **وفاء الوفاء**، ج٣، ص٤٥٨.

(٣) محمد بن صالح البليهشي، **وادي الفرع تاريخ وحضارة**، (المدينة المنورة: (د. ن)، ١٤٢٧هـ)، ص٢٠، وص١٢٤، وص١٣٣، وص١٤٢، وص١٥٠.

(٤) المرجع السابق، ص٨٠.

وبدر والصفراء والفرع وما شابهها[١]. والثانية: وقوعها على طرق الحج الرئيسة، وعلى طرق التجارة من وإلى البلدتين المقدستين.

ولهذا فإن التكوين السكاني في وادي الفرع لا يختلف كثيراً عن المناطق الجبلية في غرب الجزيرة العربية وجنوبها؛ إذ يمثل العنصر القبلي القسم الأكبر من السكان، يليه الأسر المتحضرة، سواء ذات الأصول العربية، أو الوافدة من آسيا وأفريقيا من غير أهل البلاد الأصليين[٢].

ومع غلبة التكوين القبلي لسكان المنطقة، وأهمية دور القبيلة، وبروز الانتماء القبلي في الحياة السياسية والاجتماعية؛ إلاّ أن قسماً كبيراً من تلك القبائل كانت تعيش حياة أقرب إلى الاستقرار والتحضر في القرى والخيوف المتناثرة حول العيون المائية في مضايق الأودية وعلى سفوح الجبال، وتملك الأرض وتزاول مهنة الزراعة، ويسكن كثير من أبنائها في مساكن مبنية من الحجر أو الطين، ولم يكن يعكر صفو ذلك الاستقرار إلاّ الحروب القبلية والحملات العسكرية التي تشنها أطراف أخرى، تبعاً للصراعات السياسية المحيطة بالمنطقة.

أما بادية الحجاز الممثلة في من يعيشون الحياة البدوية، وتقوم حياتهم المعيشية على تربية المواشي ورعيها؛ فإنهم يتجولون في مساحة ضيقة لا

---

(١) السباعي، **تاريخ مكة.. دراسات في السياسة والعلم والاجتماع والعمران**، (مكة المكرمة: نادي مكة الثقافي، ط٤، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م)، ص٤٤٥؛ محمد شوقي بن إبراهيم مكي، **سكان المدينة المنورة**، (الرياض: دار العلوم للطباعة والنشر، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م)، ص٩٣؛ فهد بن سعد الزايدي الجهني، **جهينة في عهد النبوة الفضيلة والصحبة**، (جدة: دار المجتمع للنشر والتوزيع، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م)، ص٢٩.

(٢) عواطف بنت محمد يوسف نواب، **كتب الرحلات في المغرب الأقصى مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين**، دراسة تحليلية نقدية، (الرياض: دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م)، ص٤٠٦-٤٠٧.

تتجاوز – غالباً – حدود ديار القبيلة الأم[١]. وهذا بخلاف القبائل النجدية التي تتميز حياتها بسكنى الخيام، وبالتنقل والترحال في الصحراء والقفار في مسافات متباعدة[٢].

ويتألف سكان بادية الحجاز بشكل عام من القبائل العربية الحجازية التي عرفت في منطقة المدينة المنورة منذ العهد الجاهلي مثل الأوس والخزرج، وجهينة، ومزينة، وسُلَيْم، وأسلم، وغفار، وغطفان، وغيرها[٣]، أو من القبائل التي ظهرت في الحجاز، أو التي انتقلت إليه من مناطق أخرى، واشتهرت فيه بعد العهد النبوي بأسماء جديدة مثل الأشراف العلويين وقبائل حرب، ومطير، والظفير، وعتيبة، وغيرهما[٤].

وتتكون القبيلة من تجمع بشري يرتبط أفراده بعلاقة نسب وقرابة، ويشكلون كياناً اجتماعياً يشترك أبناؤه في المصير والأهداف، ويتحِدُون

---

(١) أحمد بن حمد اليحيى، **السكان والاقتصاد والعمل قبل قرن في جزيرة العرب**، (الرياض: د.ن، ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م). ص٢٨١:

David G. Hogarth: **Hijaz before World War I**, Falcon Oleader, 1917, p.16. .

(٢) عبدالرحمن بن علي العريني، **الحياة الاجتماعية لدى بادية نجد وأثر الدعوة السلفية فيها منذ القرن العاشر الهجري وحتى سقوط الدولة السعودية الأولى "٩٠١هـ / ١٤٩٤م – ١٢٣٣هـ / ١٨١٨م**، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، إشراف: د. عبدالله بن يوسف الشبل، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، كلية العلوم الاجتماعية، قسم التاريخ، العام الجامعي، (الرياض: ١٤٠٣ - ١٤٠٤هـ / ١٩٨٣ – ١٩٨٤م، ص٢١٤-٢١٦.

(٣) مما قد يوحي بشيء من التحامل على القبائل العربية ما ورد عند الباحثة عواطف نواب بهذا الشأن، وهو قولها: **"انتشر الأعراب في جميع أراضي الحجاز ومدنه وقراه دون استثناء، فقد انتشروا بين المدينة المنورة ومكة المكرمة، وامتهن بعضهم الكراء ونقل الحجاج**...إلخ". ويبرز هنا ملحوظتان: الأولى: أنها دأبت على تسميتهم بالأعراب، ولم يرد عندها كلمة القبائل العربية مطلقاً. والثانية: قولها: انتشروا بين المدينة ومكة وامتهن بعضهم الكراء...إلخ، قد يفهم منه أن انتشارهم لم يحدث إلاَّ في عصور إسلامية متأخرة. نواب، **كتب الرحلات**، ص٤٠٦-٤٠٧.

(٤) حمد الجاسر، **التعليقات والنوادر، عن أبي علي هارون بن زكريا الهجري**، (الرياض: دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م)، ص٣٣.

في انتمائهم للقبيلة على حساب الانتماء السياسي للدولة، ويعيشون عادة في محيط جغرافي واحد، ولا يمنع ذلك من أن تكون القبيلة في أكثر من منطقة ولكن مع الاحتفاظ بولائها ونجدتها لبعضها البعض عند الحاجة[١].

وكان للأشراف الحسينيين والجعفريين تواجد قديم في وادي الفرع ربما تعود بدايته إلى العهد النبوي عندما أقطع النبي ﷺ بعض الإقطاعات لأناس من بني هاشم في خيف أبي ضباع المعروف إلى هذا الوقت، كما سبقت الإشارة إليه عند التعريف بوادي الفرع. وقد أشار المؤرخ أبو زيد البلخي إلى تملك الجعفريين - بني جعفر بن أبي طالب - ضياعاً كثيرة في الفرع والسائرة[٢]. وقد بقيت أسر من آل جعفر وآل حسين الأشراف في السكن والتملك في قرى وادي الفرع وخيوفه إلى عهد قريب، مثل آل راضي والخواطرة وآل عَميْرة، وغيرهم[٣].

وحرب قبيلة عربية كبيرة تعود أصولها إلى قبيلة خولان القحطانية اليمانية، هاجرت من بلاد صعدة في شمالي اليمن، واستقرت في المنطقة الواقعة بين الحرمين الشريفين في أواخر القرن الثاني الهجري على المشهور

---

(١) فرد هاليدي، المجتمع والسياسة في الجزيرة العربية، تعريب: محمد الرميحي، ط٣، (الكويت: شركة كاظمة للنشر، ١٩٨٢م)، ص٣٣؛ مناحي القشامي، البادية، مجلة المنهل، ج٥، مجلد٢٩، جمادى الأولى ١٣٨٨هـ / أغسطس ١٩٦٨م، ص٨٥٠.

(٢) الجاسر، مجلة العرب، س٣، ص٩٨٤، وس٣٠، ص٧٩.

(٣) وثيقة محلية، مبايعة ملك في خيف بني حسين الأشراف في قرية أبو ضباع، ٢٤ جمادى الأولى ١٢٥٣هـ، مج: ح/ع/م/١٦٠؛ وثيقة محلية، تلازم بين بعض قبائل بني عمرو، من حرب، وقبيلة لحيان، ١٥ ذي الحجة ١٢٦١هـ، مج: ح/م/ ي/٤٤. وآل راضي كان منهم أمراء المدينة وقائمية مقام المدينة المنورة، وكان آخرهم الشريف شحاد بن علي الذي عاصر انضمام المدينة للملك عبدالعزيز، أما الخواطرة فقد انقرضوا، وأما آل عَميْرة فلهم بقية في المدينة المنورة وفي السوارقية.

من أقوال النسابين[١]، ولم يأت القرن الرابع إلاّ وهي تسيطر على طرق الحج بين مكة والمدينة، إذ ذكر الهمداني (ت ٣٦٠هـ تقريباً) أنه لا يسير أحد بين الحرمين الشريفين إلاّ بذمام من حرب[٢].

ولعل مما ساعد على تمكين قبيلة حرب من النزول في المناطق المحيطة بالمدينة المنورة، ومزاحمة القبائل القديمة فيها هو أن القبائل ذات الشوكة في العهد النبوي قد خرج معظمها من الحجاز مع جحافل الجهاد التي خرجت إلى الأمصار شرقاً وغرباً وشمالاً للمشاركة في حروب الفتوحات الإسلامية، وكذلك مصاهرة شيوخ هذه القبيلة للأشراف الحسنيين في المدينة المنورة، مما مكنهم من التغلغل ومزاحمة القبائل الأخرى[٣]. وقد أشار ابن فضل الله العمري (ت ٧٤٩هـ) إلى قوة حرب في القرن السابع الهجري فقال: "**وهم من أكثر العرب عدداً وأجراهم رجلاً باطشة ويداً، ومساكنهم الحجاز**"[٤]. ويصفهم عبدالسلام الدرعي في رحلته إلى الأماكن المقدسة عام ١١٩٦هـ، بما يفيد أنهم أقوى قبائل الحجاز، وأن عددهم يقدر بمئة ألف[٥].

---

(١) هذا هو الذي عليه أكثر الباحثين المحققين في نسب قبيلة حرب وعلى رأسهم الشيخ حمد الجاسر والبلادي، ومحمد العوفي وغيرهم وانظر: **الهمداني ورأيه في نسب حرب بين مؤيديه ومعارضيه**، للباحث. (الرياض: دار البدراني للنشر والتوزيع، ١٤٢٨هـ / ٢٠٠٩م)، ص٧٩-١٠٢.

(٢) الحسن بن أحمد الهمداني، **الإكليل**، تحقيق: محمد بن علي الأكوع الحوالي، (بيروت: منشورات دار التنوير للطباعة والنشر، ط٣، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م)، ص٢٩٨-٣٠١؛ انظر: حمد الجاسر، مجلة العرب، ج١ و٢، س ٣٠، رجب وشعبان ١٤١٥هـ، ص٧٩.

(٣) الجاسر، **التعليقات والنوادر**، ج١، ص٧٠.

(٤) شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري، **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، السفر الرابع، (بيروت: المركز الإسلامي للبحوث، ١٩٧٥م)، ج٤، ص١٦٥.

(٥) حمد الجاسر. **ملخص رحلتي ابن عبدالسلام الدرعي المغربي**. ط٢، (الرياض: منشورات دار =

ولا يوجد إحصاء دقيق لعدد أفراد قبيلة حرب خلال مدة هذا البحث، وإن كان الكثير من المؤرخين والرحالة يرى أنهم من أكبر قبائل العرب، وقدرهم الريكي بأربعين ألفاً، وذكر صبري باشا أنهم يبلغون خمسة وثمانين ألف نسمة على أقل تقدير[١].

أما بيرتون فقد أورد معلومات جيدة عن فروع حرب، مع ذكر أعداد بعض فروعهم في منطقة المدينة المنورة، فذكر أن جماعة ابن ربيق أهل وادي الفرع (١٠,٠٠٠) نسمة،

وتنقسم حرب إلى جذمين رئيسين هما: بنو سالم، ومسروح، ويتفرع كل منهما إلى فروع كثيرة لا يتسع المجال لاستقصائها، ولعله من المهم هنا معرفة الفروع التي تدخل في التكوين السكاني لمنطقة البحث وهي وادي الفرع، إذ تكاد قبيلة بني عمرو المسروحية أن تنفرد بملكيته وسكناه، ويمكن ذكر أهم الفروع ومواقعهم باختصار، وذلك على النحو التالي:

- العطور: وهم جماعة الشيخ ابن رُبَيْق العِطْري، وقد انتقلت إليه مشيخة بني عمرو أهل وادي الفرع في مطلع القرن الثالث عشر الهجري[٢]، بعد أن كانت

=

الرفاعي للنشر والتوزيع، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م)، ص٩٨.

(١) حسن ابن جمال بن أحمد الريكي، **لمع الشهاب في سيرة محمد بن عبدالوهاب**، دراسة وتحقيق وتعليق: عبدالله الصالح العثيمين، (الرياض: دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م)، ص٢٦٣؛ أيوب صبري باشا، **مرآة جزيرة العرب**، ترجمة وتعليق: أحمد فؤاد متولي والصفصافي أحمد المرسي، (الرياض: دار الرياض للنشر والتوزيع، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م)، ج٢، ص٢٧٨.

(٢) وثيقة محلية، تلازم قبلي بين رجال بني عمرو أهل وادي الفرع، ٦ شعبان ١٢٢٩هـ، مج: م/ع/ر/٧١. وانظر نص الوثيقة كاملاً مع صورتها في كتاب: **التنظيمات القانونية والقضائية لدى قبائل الحجاز**، للباحث، راجعه وقدم له: د. عائض الردادي، (الرياض: دار البدراني للنشر والتوزيع، ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م)، ج١، ص٦٨-٧٥.

قبل ذلك في أسرة الشيخ ابن زيادة البلادي[١]. والعطور تضم أفخاذاً عديدة يصعب حصرها، من أشهرها: الربَقة، والمشاعلة، وذوو شعَيْل، والبصايصة، والسمَان، والرزون، والفواويز، والشعافين، والحناحنة، والأشِدّة، والطرسان، والمواعزة، والخضران، والحوامضة ومنهم: العفشة، والجرابعة، والعروم، والضباعين، والقبيِّلات (ومنهم: الهماهمة والشمالين والمدنـّة والكراشمة والهواملة)، وغيرهم[٢]. وتقع أملاك العطور في مضيق وادي الفرع، وفي بعض خيوفه الأخرى مثل: خيف الريان، وخيف السدر، والفقير، وغيرها.

- أولاد عبدالله، وهم أربعة أفخاذ كبيرة: البدارين، وبنو جابر، والعياضات، والمعامرة، وتقع أملاكهم أيضاً في مضيق الفرع، وفي السدر، ومسيطح، والشفية، وغيرها[٣].

- الخيارية: وهم الروثان، والسرارنة، والشعَب، والمحاميد، وتقع أملاكهم – أيضاً – في المضيق، والفقير، والسدر، وما حولها[٤].

- مناش: والنسبة إليهم: مناشي، وهم البطن الثالث من بني محمود، وتتقسم قبيلة مناش في الأساس إلى: (الضُّبَعَة) واحدهم: ضُبَيْعِي ومنهم: الفايزي والحاسري والخليفي والمسيحلي، و(الفُضَلَة) واحدهم: فُضَيْلي

---

(١) وثيقة محلية، تلازم قبلي بين رجال بني عمرو أهل وادي الفرع، ١٤ ذي القعدة ١٢٠٠هـ، مج: ح/ح/ح/١١، تنص على أن شيخ بني عمرو حينذاك هو: عبدالله بن زيادة البلادي. وانظر نص الوثيقة كاملاً مع صورتها في: **وثائق تاريخية من منطقة المدينة المنورة، القسم الأول: وثائق وادي الفرع**، للباحث، (الرياض: دار البدراني، ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م)، ج٢، ص١٥١٩-١٥٢٠.

(٢) وثيقة محلية، تلازم قبلي في وادي الفرع، ١٤ جمادى الآخرة ١٢٩٠هـ، مج: ع/ع/س/٧٣.

(٣) وثيقة محلية، تلازم بين رجال ولد عبدالله على محماة ديرتهم، ١٥ رمضان ١٢٢٩هـ، مج: أ/م/ط/١٤: وثيقة تلازم بين البلادية وولد عبدالله، ١٥ ربيع الأول ١٢٣٢هـ، مج: م/ح/ق/٨٧.

(٤) وثيقة محلية، تلازم بين بعض رجال بني عمرو، أهل وادي الفرع، ١٠ جمادى الأولى ١٢٨٨هـ، مج: م/ح/هـ/١٨.

ومنهم: المريبطي، والمسهري، والعفيفي(١). وتقع غالبية أملاكهم في مضيق وادي الفرع، واليسيرة، والفقير، وما حولها.

- البلادية: والنسبة إليهم بلادي، قبيلة قديمة من بني عمرو من مسروح، قاعدتهم قرية أم العيال بوادي الفرع، ومنهم: الروقة، والسمنات، والشمسة، والزيادات، والعرادات، وذوو غنيم، والفضول، والخفارية، والحرجة، والكوامل، والرزوق، والدروع، وغيرهم. ومعظم أملاكهم القديمة في خيف أم العيال أحد أهم وأكبر قرى وادي الفرع(٢).

- الشيوخ: في قرية أم العيال، وينقسمون إلى الشيوخ آل فروة ومنهم: ذوو عبدالله، وذوو عواد، وذوو عبدالحسن، وذوو عبدالنبي، وغيرهم. ثم الشيوخ الهواشم، ومنهم: ذوو طلحة(٣).

- الجهوم: وديارهم في أسافل وادي الفرع، في أبو ضباع والبَعيثْ والقاحة، وما حولها، ومن أشهر فروعهم: البغالية (بغولي أو بغلي)، والثميرات (ثميري)، والجراجرة (جراري)، والحمران (حمراني)، والجعافرة (جعفري)، والعبَدَة (عُبَيْدي)، والعلالسة (عَلاَّسي)، والفوايد (فايدي)، والموالك (مالكي)، وغيرهم(٤).

---

(١) وثيقة محلية، تلازم رجال مناش بشأن التزامهم بما يقرره شيخهم، ٢٤ صفر ١٢٦٠هـ، مج: ع/ح/ع/٥؛ وثيقة محلية، تلازم بين رجال مناش بشأن الإصابات غير المقصودة بين الشباب دون ١٧ سنة، ٣ شوال ١٢٧٨هـ. مج: ع/ح/ع/٥.

(٢) وثيقة محلية، تلازم قبلي بين رجال البلادية وغيرهم، ٦ ذي الحجة ١٢٢٧هـ، مج: م/ح/ق/٨٧؛ وثيقة تلازم بين البلادية ولحيان، ١٥ ذي الحجة ١٢٦١هـ، مج: ح/م/ي/٤٤؛ وثيقة تلازم بين رجال صبح ورجال البلادية من بني عمرو، ٨ شوال ١٢٦٤هـ، مج: م/ص/ب/٢: البلادي، **معجم قبائل الحجاز**، ص٤٦.

(٣) وثيقة محلية، تلازم قبلي بين بني عمرو ولحيان، ١٥ ذي الحجة ١٢٦١هـ، مج: ح/م/ي/٤٤.

(٤) وثيقة محلية. تلازم بين بعض قبائل بني عمرو في وادي الفرع، ٢١ شوال ١٣٠١هـ، مج: أ م ط١٤؛ البلادي. **معجم قبائل الحجاز**، ص٩٥.

كما عرفت أودية وأرياف منطقة المدينة المنورة بأنها منطقة جذب للسكان الوافدين من غير أهلها، مما جعلها تحتضن أجناساً أخرى من الأسر المتحضرة من غير القبائل السابق ذكرها، ويمكن إرجاع ذلك إلى عوامل من أهمها: **وقوعها على طرق الحج**، مما أدى إلى الاتصال بين أهلها والحجاج من مختلف البلدان والجنسيات الإسلامية الأخرى، فاختار بعض المارين عبر تلك الأودية الإقامة والسكنى في تلك المناطق لقربها من الحرمين الشريفين، وزاولوا العمل في الزراعة بالأجرة، أو التجارة مع الحجاج والقوافل التجارية وفي الأسواق المحلية[1]. ومن ذلك أيضاً: **خصوبتها وصلاحيتها للزراعة**، إذ تتميز تلك المناطق بكثرة عيونها وينابيعها، مما جعلها مناطق قابلة للزراعة؛ خاصة زراعة النخيل والحبوب والفواكه[2]. ولهذا فقد استقر كثير من الأسر القادمة من داخل الجزيرة أو خارجها وزاولوا التجارة وامتلاك الأرض وزراعتها. وأخيراً؛ فإن **حصانة موقع** تلك الأودية والقرى الجبلية الوعرة وبعدها عن المدن الرئيسة التي تسيطر عليها الدولة سيطرة كاملة، قد جعلها ملاذاً آمناً للمناهضين للسلطة، أو المطلوبين للسلطان أو لغيره من الخصوم[3]، في زمن كان يعج بالخلافات والملاحقات السياسية أو الثارات الشخصية.

---

(١) جون لويس بوركهارت، **رحلات في شبه جزيرة العرب**، ترجمة: عبدالعزيز بن صالح الهلابي، ود. عبدالرحمن عبدالله الشيخ. (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م)، ص٢٩٠-٢٩١؛ نواب، **كتب الرحلات**، ص٤٠٢.

(٢) بوركهارت، **رحلات**، ص٢٨٢؛ Roches, V.٢, P.٨٥.

(٣) أحمد زيني دحلان، **خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام**. (القاهرة: مكتبة الكليات الأزهرية، ١٩٧٧م)، ص٨٢، وص١٣٧؛ علي بن تاج الدين بن تقي الدين السنجاري، **منائح الكرم في أخبار مكة والبيت وولاة الحرم**، (الجزء الثالث)، دراسة وتحقيق: مَلَك محمد الخياط، رسالة دكتوراه، (مكة: قسم التاريخ، جامعة أم القرى، ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م)، ، ص١١٣.

وقد كان لتلك الأسر دور اجتماعي بارز تمثل في مشاركة السكان الأصليين في الحياة العامة، كما برز من تلك الأسر علماء مارسوا الكتابة والقضاء وإمامة المساجد.

الروابط الاجتماعية:

يتصف المجتمع الريفي والقروي في أودية المدينة المنورة عموماً بحالة من الاستقرار والتماسك الاجتماعي الذي تفرضه الظروف المعيشية والأمنية في غياب دور السلطة المركزية في حفظ النظام والأمن، وبسبب سيطرة النزعة القبلية وما تفرضه من علاقات تقوم على القرابة والعصبية، كما أن وقوع المنطقة على طرق الحج له دور في إيجاد نوع من التعايش السلمي بين فئات المجتمع بمختلف أنواعها[1] تحت ظل ما يمكن أن يسمى بالنظام القبلي في العلاقات الاجتماعية التي تهدف إلى حفظ حقوق الآخرين وحمايتهم طالما كانوا في النطاق الجغرافي للقبيلة. ويتضح مدى عمق الروابط الاجتماعية من خلال المظاهر التالية:

١- الروابط العصبية القبلية:

تمثل القبيلة العنصر الأكبر في المجتمع الريفي والصحراوي في منطقة الحجاز، ولهذا فإن ظاهرة اللحمة العصبية تكوِّن أساس الروابط الاجتماعية، مما جعل أمر معرفة النسب والمحافظة عليه محل اهتمام كبير ربما لا يعادله اهتمام أي شعب آخر بهذا الجانب، وكان ذلك من أهم أسباب حفظ أصول القبائل العربية، وعدم اختلاط أنساب العرب رغم حياة الحل والترحال وشظف العيش، كما يقول ابن خلدون[2].

---

(١) حمد محمد القحطاني، **الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في إقليم الحجاز**، (بيروت: الدار العربية للموسوعات، ١٤٢٩هـ / ٢٠٠٩م)، ص٢٥٦.

(٢) عبدالرحمن ابن خلدون، **العِبَر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم** =

ومن خصائص النسب ومقوماته في الحياة القبلية وجود العصبية القائمة على حماية الكيان القبلي وتحقيق الأمن لأفراده، ويؤكد ابن خلدون على هذه الناحية عندما يشير إلى أن عدوان أهل المدن والأمصار على بعضهم يُدفع بوساطة الحكام والدولة؛ أما البدو فيزع مشايخهم وكبراؤهم بعضهم عن بعض[(١)].

ويمكن ملاحظة ذلك في قبائل الحجاز من خلال كثرة التحالفات القبلية الموثقة التي تسمى اللزايم: جمع لِزمة، وتعني التلازم والتواثق بين طرفين أو أكثر على الالتزام بنصرة بعضهم بعضاً، وأنهم أبناء رجل واحد في كل ما ينوب أي طرف منهم، فهم يتحملون المغرم ويشتركون في المغنم، ولا يتخلى بعضهم عن بعض في حال الاعتداء على أحدهم من طرف خارجي.

ومن أمثلة ذلك تلازم رجال الفضلَة[(٢)] من مناش من بني عمرو، من أهل المضيق بوادي الفرع عام ١٢٨٣هـ، وعبارته: **"الحمد لله تعالى؛ حرر وجرى يوم وحده[(٣)] وعشرين من شهر جماد تالي[(٤)] سنة ١٢٨٣، هو أنه قد تحاضروا الرجال المذكورين رجال الفضلَة الذي[(٥)] هم رجال العففا**

=

من ذوي السلطان الأكبر، اعتنى به: أبو صهيب الكرمي، (بيروت: بيت الأفكار الدولية، د. ت)، ص٦٨؛ مشارقة، **الحياة الاجتماعية عند البدو**، ص٥١.

(١) ابن خلدون، **العِبَر**، ص٦٧؛ محمد زهير مشارقة، **الحياة الاجتماعية عند البدو في الوطن العربي**، (دمشق: دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ١٩٨٨م)، ص٧٢.

(٢) وهم غير الفضلة من الأحامدة.

(٣) هكذا في الأصل، والمراد: يوم واحد وعشرين.

(٤) هكذا في الأصل، والمراد: جمادى الآخرة.

(٥) هكذا في الأصل، وصحبة العبارة: وقد تحاضروا الرجال المذكورون رجال الفضلة الذين هم...إلخ.

ورجال المساهرة، وقد تدانوا وتبانوا على أديمهم وقديمهم السابق على الحميَّة والعانيِّة وسَوق المالية وجميع الواجبات، أنهم عيال رَجَّال واحد فيها؛ أعلى ما يسوقون الرقبه وأسفل ما يسوقون الديواني[١]، وأنهم من دون كل أحد وعلى كل أحد، والكل للآخر صديق صديقه وعدو عدوه. وعلى هذا النص تلازموا الأعراض أعراضاً ماروثة[٢]؛ حضر حسن بن مرزوق وألزم عرضه على رجال العفقا ومن يتبعهم، وحضر بنيَّان بن معيض وألزم على رجال المساهرة ومن يتبعهم. قد تلازموا الأعراض أعراضاً ماروثة على الحميَّة والفرقية[٣] والعانية والمالية عيال رَجَّال واحد من دون كل أحد، وأن الدم الذي يحصل في الحمية أنه يسد في الدم[٤]. تلازموا الأعراض على ذلك أعراضاً ماروثة مدة الغراب غراب والتراب تراب، ملزوم ومحزوم لا ينقضه لا غيض ولا رضى. وقد حضر علي بن كليب وألزم عرضه على ما ألزم عليه حسن بن مرزوق[٥]، وحضر مصلح بن صادق وألزم على ما ألزم عليه بنيَّان بن معيض[٦]، وعلى ذلك وقع الإشهاد، شهد الله قبل خلقه، وشهد بذلك مبارك بن حمِيْد المريبطي، وشهد بذلك طريبيش بن عبدالحسن الجرَّاري، وشهد بذلك مسلم بن

---

(١) الديواني: فئة من العملة المستخدمة في منطقة الحجاز في ذلك الوقت، وسيأتي تعريفه في القسم الخاص بالعملات النقدية في الفصل الرابع. والمراد: أنهم شركاء في المغارم الكبيرة والصغيرة.

(٢) هكذا في الأصل، والمراد: موروثة، أي متوارثة.

(٣) الفرقية: (بفتح الفاء وإسكان الراء) هي ما يُفَرَّق، أي يفرض من المبالغ على أفراد القبيلة لمواجهة ما تتحمله القبيلة من غرامات أو ديات.

(٤) المقصود: أن من قُتِل في ثأر واحد من القبيلة فإنه يسد عنه، ولا شك أن هذا من الممارسات الخاطئة، لأن القصاص الشرعي إنما يكون من المتسبب فقط أو المشارك في الجريمة.

(٥) هؤلاء من البلاهشة من العُفقا، من مناش.

(٦) هؤلاء من المساهرة، من مناش.

جري البرَّاكي[١]، وشهد بذلك فليح بن عايض الرويثي، وكتب وشهد بإملاء الجميع وحضورهم محسن بن عطية الصايغ[٢]، والله خير الشاهدين"[٣].

والغاية من إبرام تلك التحالفات؛ منع تعدي كل قبيلة على متعلقات القبائل الأخرى سواء كان ذلك من القوافل أو من المواشي والممتلكات، كما أن كل طرف ملزم برد الحيوانات الضائعة والمفقودة إذا دخلت أراضي القبيلة الأخرى. ومن الواضح – أيضاً – أن هذه الاتفاقية تشبه إلى حد كبير قاعدة المعاملة بالمثل المعمول بها بين بعض الدول في العصر الحاضر.

ويرى د. مشارقة أن العصبية القبلية علاقة موَحِّدة وشاملة، وذات قوة إلزامية وزجرية، تحقق نوعاً من السيطرة على أفراد القبيلة من خلال ما توجده من حوافز تجعلها تدافع عن قيمها ومعاييرها وما تضعه من قواعد ونظم وقيم اجتماعية، لكنها تعمل من جانب آخر على عزل القبيلة من النواحي الاجتماعية والجغرافية[٤].

٢- تبادل الهدايا والهبات:

ومن مظاهر الروابط الاجتماعية الجميلة في مجتمع الدراسة، ما يتعلق بالتعاون والتكاتف ومد يد العون للآخرين وتبادل الهدايا، دون أن يكون

---

(١) المشهور في الوثائق التاريخية: مسلّم بن جبر البرّاكي. وقد يكون هناك خطأ من كاتب الوثيقة، أو أن المقصود هنا شخص آخر.

(٢) من كتبة الوثائق المشهورين في وادي الفرع. ورد اسمه في عدد كبير من الوثائق المحلية خلال الحقبة من سنة ١٢٧٠ إلى ١٢٩٠هـ، وخطه حسن.

(٣) وثيقة محلية. تلازم وتحالف بين رجال الفضلة من مناش، من بني عمرو أهل وادي الفرع، ٢١ جمادى الآخرة ١٢٨٣هـ. مج: م/ص/ب/٢.

(٤) مشارقة، **الحياة الاجتماعية عند البدو**، ص٧٣.

لذلك أهداف سياسية أو اقتصادية أو غير ذلك، وإنما من باب التقرب إلى الله، وتحقيقاً لصلة الرحم والمودة في القربى، وتبادل المعروف.

ومن عاداتهم في الهبة؛ أن الموهوب له يقوم اختيارياً بمجازاة الواهب؛ فيقدم هدية مالية أو عينية للواهب[١]. ومن ذلك على سبيل المثال: أن امرأتين من فرع الأشدة من قبائل بني عمرو أهل وادي الفرع وهبتا أخويهما عقاراً يشتمل على أرض ونخل ومنازل، جاء في وثيقته التي تم نقل عباراتها كما هي: "... **قد حضرن المرأتين الطاهرات الأمينات[٢] وهن[٣] (هيا) وبنتها (نورة بنت لاحق بن بركة)، وقد أقرّن[٤] بإقرار صحيح شرعي أنهن أوهبن وأعطن (مصاول) وأخوه (لافي) أولاد (لاحق)... إلخ**"[٥].

ثم تنص وثيقة الهبة المذكورة على أن الأخوين تعهدا بوقف نخلة في سبيل الله عن أختهما الواهبة عند وفاتها، وسيقومان بخدمة الأم وحضانتها وكفالتها، مكافأة لهما على هذه الهبة[٦].

٣- الرسائل الأخوية:

من ملامح الحياة الاجتماعية، وترابط الناس في مجتمع الدراسة؛

---

(١) وثيقة محلية، إثبات عطاء في وادي الفرع، ٢٥ جمادى الآخرة ١٢٥٨هـ، مج: ن/ع/ب/٦٩.

(٢) هكذا في الأصل، وصحتها لغوياً: حضرت المرأتان الطاهرتان الأمينتان وهما....إلخ.

(٣) هكذا في الأصل، وصحتها لغوياً: وهما...إلخ.

(٤) هكذا في الأصل، وصحتها لغوياً: أقرتا...إلخ.

(٥) جرى نقل النص أعلاه كما ورد في الوثيقة، وصحته لغوياً كما يأتي: "... **قد حضرت المرأتان الأمينتان وهما هيا وبنتها نورة بنت لاحق، وقد أقرتا بإقرار صحيح شرعي أنهما أوهبتا وأعطتا مصاول وأخاه لافي أولاد لاحق...إلخ**".

(٦) وثيقة محلية، هبة شرعية بخيف السدر بوادي الفرع، ٢٥ جمادى الآخرة ١٢٥٨هـ، مج: س/غ/ص/٦٦.

ظاهرة كثرة المراسلات الخاصة، وما تحمله من معاني العلاقات الحميمية بين الأقارب والأصدقاء وتبادلهم لمشاعر الأفراح والأتراح. كما تظهر الرسائل أيضاً ميل الناس إلى إخبار بعضهم بعضاً بما يدور حولهم من حوادث أو أخبار في غياب وسائل الاتصال الأخرى.

ومن أمثلة المراسلات الشخصية، رسالة من شخص غائب إلى صديقه المقيم في وادي الفرع، جاء فيها بعد الاستفسار عن ملكه، ما يلي: "... **هذا ما نخبرك به، وبعد ذلك يخلف الله عليك ما غدا من الأولاد، ويعوضكم الله فيهم خير، وربنا يسلّم لكم ما بقي لقول النبي ﷺ: (الأولاد كنز لا يبدل؛ ما تقدم منهم شافع، وما تأخر منهم نافع)**[١]**، وسلّم لنا على الأولاد، وعلى صالح بن نفاع وأولاده، وعلى مرزوق بن محمد، وعلى عبدالله بن سعد وأخيه، وعلى عبداللطيف بن عبدالمحسن، وعلى عمر وأولاده، وعلى عمر الشاقي، وعلى عودة العوَيْد، وعلى خوالي**[٢] **جميعاً، وعلى كل من يسأل عنا...إلخ الرسالة**"[٣].

ومن ذلك أيضاً مراسلة بشأن طلب كمية من الدخن والأرز على سبيل السلفة، على أن يسدد ثمنها لاحقاً، وجاء أولها: "**الحمد لله وحده؛ إلى حضرة الجناب المكرم راجح بن مبارك اللقماني**[٤] **سلمه الله آمين، بجاه سيد المرسلين**[٥]**.. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد؛**

---

(١) يظهر أن هذا من أقوال العوام وليس حديثاً، إذ لا وجود له في كتب الحديث التي اطلع عليها الباحث.

(٢) هكذا في الأصل، والمراد: أخوالي.

(٣) وثيقة محلية، رسالة من مبارك بن دواس الرويثي إلى عبدالمعطي بن حسن في وادي الفرع، ٢٧ ربيع الأول ١٢٦٠هـ، مج: م/ع/م/٦٨.

(٤) من شيوخ قبيلة عوف.

(٥) مع أن هذه العبارة ليست مستحبة شرعاً؛ إلاّ أنها ربما كانت سائدة الاستعمال لدى العامة في =

موجب الخط إبلاغكم السلام، نذكر لجنابك العزيز الأعلى الواصل إليك يا أخي أخينا[١] مبارك والجماعة معه، عازتنا عند الله وعندك يا أبو مبارك اثنا عشر إردب[٢] دخن وكيسين رز، لازم لازم... إلى قوله: لا يكون رد الجواب إلا به، هذا ورد لنا على العيال[٣] والجماعة من غير تخصيص، وأنت سالم، والسلام من محبكم وداعي لكم بالخير حَمْد بن عودة العوَيْد[٤]...إلخ[٥].

والأمثلة على المراسلات الخاصة كثيرة، لكنها في الغالب لا تختلف عن هذه الصور من حيث العفوية والبساطة والوضوح، وشيوع اللغة العامية، مع ملاحظة الحس الديني، وتأثيره على عبارات الرسائل.

العادات والتقاليد:

تكمن أهمية دراسة العادات والتقاليد لأي مجتمع في أنها تعطي صورة أكثر وضوحاً وواقعية لذلك المجتمع، وتوضح السلوك الحقيقي لأفراده، وتظهر طريقة تفكيرهم، وأسلوب حياتهم[٦].

وفي الوقت الذي كان فيه تركيز كثير من المؤرخين والرحالة على

الحجاز بسبب تأثرهم بثقافة الحجاج المصريين.

(١) هكذا في الأصل، وصحتها لغوياً: أخونا.

(٢) الإردب Erdeb نوع من الموازين المستخدمة في مصر ويساوي ١٢٠ أوقية. سهيل صابان، **المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية**، (الرياض: مكتبة الملك عبدالعزيز، ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م) ص٢٨.

(٣) المراد: أبلغهم سلامنا.

(٤) حمد بن عودة العوَيْد الفايزي، من شيوخ قبيلة مناش، من بني عمرو، وهم سكان مضيق وادي الفرع.

(٥) وثيقة محلية، مراسلة من الشيخ حمد بن عودة العويد إلى راجح بن مبارك اللقماني، غير مؤرخة (التاريخ التقريبي ١٢٧٥هـ؟)، مج: ع/ح/ع/٥.

(٦) أحمد عبدالإله عبدالجبار، **عادات وتقاليد الزواج بالمنطقة الغربية من المملكة العربية السعودية.. دراسة ميدانية انثروبولوجية حديثة**، (جدة: تهامة، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م)، ص٧٦.

الجانب غير المشرق من تاريخ عرب الحجاز من غير سكان المدن الرئيسة، وصوروا حياتهم على أنها حياة فوضوية لا تعرف إلاّ قطع الطرق ونهب الحجاج وما إلى ذلك[١]؛ فقد اهتم عدد منهم أيضاً بتدوين ملحوظات جيدة عن أخلاق بادية الحجاز، ووصفوا حياة المجتمع البدوي بشيء من الموضوعية، حيث أظهروا إعجابهم الشديد بالكثير من العادات والتقاليد البدوية الحميدة التي لا توجد إلاّ في الصحراء مثل: اعتزاز البدوي بحريته، مع حرصه على احترام تقاليد قبيلته والبعد عما يسيء علاقتها مع القبائل الأخرى، فضلاً عن الإعجاب بفصاحته، وبعده عن عبارات النفاق والتفخيم، ومقته لعبارات المراوغة[٢].

وكان على رأس أولئك الرحالة السويسري بوركهارت الذي وصف البدو بالرجولة، والأنفة، وصفاء النفس، وشدة الصبر والتحمل، والتفاني في إكرام الضيف وحمايته إلى حد التضحية بحياته من أجل ذلك[٣].

ويعد المؤرخ أيوب صبري باشا من أكثر من اهتم بتسجيل معلومات دقيقة ومفصلة عن عادات العرب وتقاليدهم، إذ خصص الباب السادس من كتابه لذلك، وضمنه ستة فصول كلها تتحدث عن هذا الجانب. ولهذا فقد نقل الكثير من الملحوظات والإشارات المتعلقة بعادات العرب وتقاليدهم وأعرافهم القبلية التي تحول الكثير منها مع الوقت إلى قوانين تنظم حياتهم

---

(١) ومن ذلك أن أكثر من ١٠ رحلات مغربية مدونة عن الحج خلال حقبة الدراسة، لا يوجد فيها معلومات عن الأحوال العامة في منطقة البحث. عبدالهادي التازي، **رحلة الرحلات.. مكة في مئة رحلة مغربية ورحلة**، مراجعة: عباس صالح طاشكندي، ج٢، (مكة المكرمة: مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م)، ص٤٧٩-٥٣٧.

(٢) جون لويس بوركهارت، **ملاحظات حول البدو والوهابيين**، (بيروت: دار سويداء، ١٩٩٥م)، ص٤٩-٥٩، وص١٠١-١١١.

(٣) بوركهارت، **ملاحظات**، ص٧٥-٧٦؛ مشارقة، **الحياة الاجتماعية عند البدو**، ص١٩٧.

وعلاقاتهم مع بعضهم بعضاً ومع من حولهم[١]. كما أبرز الكثير من الأعراف والعادات السائدة لدى قبائل المنطقة؛ وبخاصة ما يتعلق بسجاياهم الحميدة مثل: إغاثة الملهوف، وحماية الدخيل (المستجير)، والعادات المتعلقة بحفظ الأمانة وأدائها لأصحابها على الوجه الأكمل[٢].

ويمكن الوقوف على أهم الجوانب المتعلقة بالعادات والتقاليد من خلال الملامح التالية:

١- إكرام الضيف:

إكرام الضيف من أخلاق العرب وعاداتهم المتوارثة، التي كانت متأصلة فيهم منذ الجاهلية، وقد جاء دين الإسلام مؤكداً عليها، وحاثاً المسلم على إكرام الضيف وعابر السبيل، مما زاد هذا الخلق رسوخاً. ولذلك يحتل هذا الجانب حيزاً كبيراً من اهتمامهم، ويرد له شواهد كثيرة في وثائقهم وأشعارهم. ومن ذلك أن نازل الحِمَى الذي لا يسمح الرعي فيه مدة حمايته، يحق له الاحتفاظ بذبيحة الضيف[٣]، وأن الطرقي وهو عابر السبيل يستثنى من قوانين الحِمَى[٤].

ولأهمية الضيافة عند عرب الحجاز؛ فإن لها تقاليد وعادات وإجراءات يحرصون على تطبيقها والتقيد بها ابتداء من وصول الضيف وطريقة سلامه، ورد التحية، وكيفية سؤاله عن اسمه وعربه، وعن الأخبار في طريقه، وغير ذلك[٥].

---

(١) صبري باشا، **مرآة جزيرة العرب**، ج٢، ص٣٣١-٣٨٩.

(٢) المصدر السابق، ج٢، ص٣٥٨-٣٦١.

(٣) وثيقة محلية، اتفاقية حِمَى قبيلة الأحامدة في جبل الفِقرة، شهر ذي القعدة ١٢٦٤هـ، مج: أ/ع/أ/١٥٧.

(٤) وثيقة محلية، اتفاقية حِمَى قبيلة الجهوم في القاحة، ١٢٥٥هـ، مج: ح/م/ع/٣٦.

(٥) عاتق بن غيث البلادي، **الأدب الشعبي في الحجاز**، (مكة المكرمة: دار مكة للطباعة والنشر =

ولأهمية إكرام الضيف والطارق عندهم؛ فإن الشعراء عامة يستهلون قصائد المديح بذكر صفة الكرم في الممدوح قبل غيرها، كما سيأتي في الفصل التالي ضمن فقرة الشعر والأدب.

ويؤكد بيرتون أن من العادات السائدة عند بدو الحجاز عدم بيع الحليب، ويرون ذلك عيباً، ويحتقرون اللبّان وهو بائع اللبن، لكنهم يجودون باللبن على عابر الطريق دون مقابل[1].

ويذكر بيرتون في موضع آخر: **"أن بني حرب يحتقرون بائعات الجبن"**. ولعله يقصد به الأقط، أو الزبدة[2].

ومع وجود الجوانب المشرقة التي ذكرها أولئك المؤرخون عن حياة المجتمع القروي والقبلي في منطقة المدينة المنورة؛ فإنهم يشيرون – أيضاً – إلى بعض العيوب والسلبيات والعادات السيئة، مثل ظاهرة الإفراط في شرب الدخان، أو ما يمارسه بعض أبناء البادية العاملين في نقل الحجاج من حب المشاكسة، وطلب البخاشيش والرشاوى إذا ما وجدوا إلى ذلك سبيلاً. لكن بيرتون وهو المتحامل – أحياناً – على المنطقة وأهلها يعزو ذلك إلى تأثير تعاملهم مع الحجاج **"الذين أفسدوا أخلاقيات الكثير من أبناء هذه القبيلة العريقة التي احتفظت بنقاء دمها خلال الثلاثة عشر قرناً الأخيرة"**[3].

= والتوزيع، ط٢، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م)، ص١٧٨-١٨٢.

(١) ريتشارد بيرتون، **رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز** (جزآن)، ترجمة وتحقيق: د. عبدالرحمن عبدالله الشيخ، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤م)، ج١، ص٢٠٠.

(٢) بيرتون، **رحلة بيرتون**، ص٢٣١.

(٣) بيرتون، **رحلة بيرتون**، ج١، ص٢٠٠.

ولا شك أنه من غير الإنصاف أن يتهم عموم الحجاج بذلك؛ إذ يبدو أن المقصود بعض أمراء الحج الذين كانوا يتعاملون مع عرب الطريق ومؤجري الجمال بأساليب تختلف عن أخلاقياتهم وأعرافهم؛ إذ عُرِف الكثير من أمراء الحج من غير العرب بالخداع والمراوغة، والظلم والتعدي على الحقوق، واستخدام القوة المفرطة، واستخدام الرشاوى، وخيانة العهود والمواثيق، وغير ذلك مما كان له تأثير على أخلاقيات بادية الحجاز مع مرور الوقت، وربما يكون المؤرخ الجزيري أفضل من وجه نقداً صريحاً لأمراء الحج بهذا الشأن، وأكثر من أورد الأمثلة والقصص التي تدل على سوء أخلاقيات الكثير منهم(١).

٢- الشجاعة وحمل السلاح:

في زمن مشحون بالخوف والاضطرابات الأمنية، وما يستدعيه ذلك من الاعتماد على الذات في الدفاع عن النفس، فإن للسلاح أهمية كبيرة لدى أبناء البادية في ذلك الزمن، وهو من ضروريات حياتهم.

والغالب أن البدوي لا يخرج إلى الناس إلاّ مسلحاً، ليس لاستعماله فقط، بل لما يحظى به المتسلح من هيبة واحترام، ولو خرج بغير سلاح أو عصا فقد يكون محلاً للسخرية والاستخفاف(٢).

يلبس غالب رجال البادية مِجْنداً، وهو حزام عريض يلف على الجسم من

---

(١) عبدالقادر بن محمد بن عبدالقادر بن إبراهيم الجزيري الحنبلي، **الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة**، أعده للنشر: حمد الجاسر، (الرياض: منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر)، ص٨١٤ وص٨٢٥ وص٨٣٠ وص٨٣٥؛ وانظر أيضاً: السباعي، **تاريخ مكة**، ص٤٤٦.

(٢) بيرتون، **رحلة بيرتون**، ج١، ص١٩٣، وج٢، ص٢٢٦؛ البليهشي، **وادي الفرع**، ص٣٣٩؛ مشارقة، **الحياة الاجتماعية عند البدو**، ص١٦٥.

أعلى الكتف إلى أن يلتقي عند الخصر المقابل، ووظيفته حمل ذخيرة الأسلحة النارية[١].

ويصف بيرتون سلاح البدوي وأدواته وصفاً دقيقاً؛ فيذكر أنه يلبس حزاماً عريضاً توضع فيه طلقات الرصاص على الكتفين، وقوارير البارود[٢]، والفتايل الموضوعة في قرون مجوفة، ويحمل قطعاً من أحجار الصوان تستخدم في إشعال الفتايل وغير ذلك. وأحياناً يحمل البدوي عادة مسدسين فضيين[٣] تعمل بقدح الصوان، إضافة إلى خنجر كبير، وآخر صغير، وقضيب حديدي (مَدَك) لتنظيف المسدس أو البندقية. كما يحمل كيساً صغيراً – من الجلد – في حزام الخصر على الجانب الأيمن يحوي خراطيش ومواداً للحشو وعلباً لحفظ بارود الفتايل. وغالباً ما يحمل سيفاً يعلق على الكتف بحبال من حرير قرمزي وجراب ضخم، وقد يحمل في يده بندقية قصيرة أو طويلة. وكلما كانت هذه الأسلحة نظيفة لماعة كان ذلك مصدر فخر واحترام لحاملها، لأن عنايته بالسلاح من علامات الرجولة والفروسية[٤].

---

(١) بيرتون، رحلة بيرتون، ج١، ص١٩٢-١٩٣، إلاّ أنه سماه مِجْدلاً، والصواب: أنه مِجْنَد، أما المِجْدل فشيء مختلف؛

Leon Roches, **TRENTE-DEUX ANS A TRAVERS L'ISLAM (1834–1844),** (Paris, Librairie de Firmin-Didot Et C^ie^, 1887), V. 2 p. 65. دارة الملك عبدالعزيز، **الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية**، ص٢٦١.

(٢) بيرتون، **رحلة بيرتون**، ج١، ص١٩٣، وص٢٠١؛ عبدالعزيز عبدربه الحازمي، **جذور وتراث**، (الرياض: دار المفردات للنشر والتوزيع، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٥م)، ص٩١-٩٢.

(٣) وهي نوع من البنادق الفتيل قصيرة جداً، تسمى الطبنجة أو الفرد. سعد بن عبدالله الجنيدل، **معجم التراث.. السلاح**، (الرياض: دارة الملك عبدالعزيز، ١٤١٧هـ)، ص١٧٣.

(٤) بيرتون، **رحلة بيرتون**، ج١، ص١٩٣، وص٢٠١: الحازمي، **جذور وتراث**، ص١٥٥.

٣- العمل والنشاط السكاني:

يتنوع النشاط السكاني في منطقة البحث بين مهنة الرعي التي يمتهنها أهل البادية الرحل وهم أهل الإبل والغنم، وبين مهنة الزراعة التي يزاولها أصحاب الأرض المستقرون في خيوفهم حول العيون والمجاري المائية[١]، في حين يزاول قسم كبير من أهالي المنطقة الواقعة على طرق الحج مهنة الجمَالة، وهي نقل البضائع والمهمات وخدمة الحجاج من المدينة النبوية وإليها[٢].

وفي وقت الصيف يزداد النشاط في القرى ذات النخيل مع موسم جني التمور، إذ يتوافد أهل البوادي، ويقطنون حول القرى والخيوف، ويعملون مع أهل النخل، بعضهم بوصفه شريكاً في الملكية مع المزارعين، وبعضهم مقابل ما يحصل عليه من التمر جراء عمله في جني الرطب والصرام ونقل التمر إلى المرابد[٣]، ثم تجفيفه وتعبئته، وتحميله وتنزيله[٤].

وفي الظروف القروية والصحراوية الصعبة؛ فإن أبناء القبائل يتحملون مسؤولية العمل منذ نشأتهم الأولى، إذ يشاركون في رعي صغار الماشية في أطراف الحي في مرحلة الطفولة، ثم يتدرجون في مهنة الرعي ابتداء من ملاحظة الأغنام، أو الإبل وملاحقتها وتوجيهها للمراعي القريبة وصرفها عن الممتلكات الخاصة ونحو ذلك. وابتداء من السادسة تقريباً يتعلم الصغار ركوب الإبل، وفي وقت قصير تزداد مهارتهم في ركوبها

(١) بوركهارت، **رحلات**، ص٢٨٢ – ٢٨٣.

(٢) صبري باشا، **مرآة جزيرة العرب**، ج٢، ص٢٧٦.

(٣) المرابد: جمع مِرْبَد: وهو مكان مرصوف بالحجارة المصفحة الملساء يجمع عليه التمر بعد صرامه، ويجري عليه ما يحتاجه التمر من تنقية ومعالجة.

(٤) البليهشي، **وادي الفرع**، ص٣١٤-٣١٦؛ الحازمي، **جذور وتراث**، ص١١٨.

وترويضها[١].

وفي مرحلة الشباب المبكر يتعلم الصبيان حمل السلاح واستخدامه، لما تتطلبه حياة التنقل والترحال في ظروف قاسية تتسم بالاضطرابات الأمنية والخصومات الفردية والحروب المستمرة. ويتميز شبان المجتمع القبلي الصحراوي بالحيوية والنشاط والتنافس في إظهار رجولتهم، مما يجعلهم يتسابقون إلى تعلم مهارات الحرب، واتقان فنون القتال لحماية أنفسهم وممتلكاتهم في مجتمع يعتمد على القوة في الدفاع عن نفسه، ويرى الجبن من أشنع الصفات التي يمكن أن يتصف بها الرجل[٢].

٤- دور المرأة في المجتمع:

تقوم المرأة في المجتمع الريفي والبدوي بدور كبير في الحياة الاجتماعية، وتقاسم الرجل مشاق الحياة من رعي أو فلاحة أو تجارة، فهي تقوم بأعمال البيت وشؤونه، وتدبير أمور الأسرة، من جلب الماء والحطب والطبخ والغسيل والخياطة وما إلى ذلك. كما إنها تشارك في الأعمال الأخرى التي يمارسها زوجها إن كان مزارعاً في العمل في الحقل، وإن كان بدوياً في إنشاء بيت الشعر وبنائه وصيانته وترتيبه، والمشاركة في الأعمال التي تتطلبها حياة البادية من الرعي والحلب والإرضاع، وإنتاج اللبن ومشتقاته[٣]. بالإضافة إلى ذلك فإنها تقوم بأعمال كثيرة أخرى مثل طحن

---

(١) صبري باشا، **مرآة جزيرة العرب**، ج٢، ص٢٨٣؛ وانظر أيضاً: الحازمي، **جذور وتراث**، ص٨٤.

(٢) صبري باشا، **مرآة جزيرة العرب**، ج٢، ص٨٣.

(٣) مشارقة، **الحياة الاجتماعية عند البدو**، ص١٣٧، وللمزيد من المعلومات عن هذا الموضوع انظر: محمد عمر الطنوبي، **المرأة الريفية العربية**، (الإسكندرية: مكتبة ومطبعة الإشعاع الفنية، ٢٠٠١م)؛ وانظر أيضاً: الحازمي، **جذور وتراث**، ص٨٤.

الغلال وجرشها بواسطة الرحى، وغير ذلك[١].

ووضع الفتاة لا يختلف كثيراً عن وضع الشاب؛ فالفتاة تنخرط في العمل منذ السنة العاشرة تقريباً حيث تشارك في رعي صغار الماشية، ثم لا تلبث أن تتعلم المزيد من المهارات مثل الحلب وخفق الحليب، واستخراج الزبدة وصناعة الإقط، ونحو ذلك[٢].

كما أن المرأة لها نشاط واضح في الحياة الاجتماعية، والوثائق المتعلقة بنشاط المرأة كثيرة ومتعددة، يضيق المجال عن عرضها، إذ أنها تشمل كافة الأنشطة الاجتماعية مثل البيع والشراء[٣]، والتملك ومناقلة الأملاك[٤]، والأوقاف والأسبال[٥]، والتأجير[٦]، وغير ذلك.

كما يلحظ نشاط المرأة في الأعمال الاجتماعية والخيرية، من خلال كثرة أوقافها في أعمال البر، وهباتها الشرعية، وأعطياتها خصوصاً للأقارب كالزوج والأبناء والإخوان وغيرهم، ويظهر ذلك من خلال نماذج كثيرة من الكتابات المحلية.

وبخلاف ما هو سائد في بعض المجتمعات، فإن المرأة كانت تحظى بمكانة رفيعة في ذلك المجتمع، ويظهر ذلك من خلال الألقاب التبجيلية

---

(١) بوركهارت، **رحلات**، ص٣٥٤.

(٢) صبري باشا، **مرآة جزيرة العرب**، ج٢، ص٢٨٣.

(٣) وثائق محلية، مبايعة نخلة في خيف الجديدة، ٥ شوال ١٢٦٥هـ، مـج: ح/م/ذ/١٤٣؛ وثيقة محلية أخرى، ١٥ جمادى الآخرة ١٢٨٢هـ، مـج: م/ع/ح/١٢٧؛ وثيقة مبايعة، ٢٠ جمادى الأولى ١٢٨٥هـ: ح/م/ذ/١٤٣.

(٤) وثيقة محلية، مناقلة ملكية ماء في خيف الحزامي، ٢٥ جمادى الآخرة ١٢٨٢هـ. مـج: ع/ع/ع/٢٠٥.

(٥) وثيقة محلية، وقف حوض نخل في قرية الحسنية، رمضان ١٢٥٢هـ. مج: م/ع/ط/١٠٥.

(٦) وثائق محلية، تأجير حوض في خيف الحزامي. ١١ رجب ١٢٧٤هـ، مـج: ع/ع/ع/٢٠٥؛ وثيقة تأجير في بلاد الحوازم، ١٨ ذي الحجة ١٢٥٩هـ، مج: ح/م/ذ/١٤٣.

التي تطلق على المرأة في المكاتبات القضائية والمحلية، فنجدها توصف بالحرة العاقلة الرشيدة[(١)]، والحرة المصونة، والدرة المكنونة[(٢)] وغير ذلك من أوصاف التلطف والتكريم.

٥- الزواج:

من الملاحظ؛ أن أكثر الذين يكتبون عن البادية يعممون الممارسات التعسفية التي توجد في بعض المجتمعات البدائية والقبلية مثل عادة التحجير، أو الزواج القسري، أو عدم الاستشارة، أو عدم التكافؤ العمري، أو زواج الشغار، أو نحو ذلك، دون مراعاة للاختلافات الثقافية لكل مجتمع بدوي[(٣)]. فالذي يظهر من خلال الإشارات التاريخية؛ أن المجتمع في منطقة الدراسة أكثر انفتاحاً ووعياً بسبب ما يتميز به من الاتصال مع المجتمعات المتحضرة خارج الجزيرة من خلال احتكاك أبنائه سنوياً مع الحجاج، ومخالطتهم للعلماء المرافقين لمواكب الحج، فضلاً عن وجود علماء ورجال دين محليين في كل قبيلة، كما سيتبين في الفصل المتعلق بالأوضاع الثقافية والدينية.

كما يستفاد من الوثائق المحلية كثرة المصاهرات بين القبائل المختلفة، من حرب وجهينة والأشراف وغيرهم، مما قد يكون مؤشراً قوياً إلى عدم وجود عادة التحجير عند عرب المنطقة[(٤)].

---

(١) وثيقة محلية، مؤرخة في ١٨ جمادى الأولى ١٢٦٤هـ، مج: ح/م/ذ/١٤٣.

(٢) وثائق محلية، وثيقة مؤرخة في ٢٨ جمادى الآخرة ١٢٦٥هـ، مج: م/ع/ط/١٠٥؛ وثيقة مبايعة، ٣٠ ربيع الثاني ١٢٨٠هـ، مج: هـ/م/غ/٢٠٧؛ ووثيقة أخرى، ١٥ جمادى الآخرة ١٢٨٢هـ، مج: م/ع/ح/١٢٧.

(٣) البلادي، **الأدب الشعبي**، ص١٩٦-٢٠٠؛ مشارقة، **الحياة الاجتماعية عند البدو**، ص١١٦-١١٧.

(٤) وثيقة محلية، تشير إلى زواج بنية بن حمد بن شيحة من القواد من حرب من روضة بنت خلف الإبراهيمي من أشراف جهينة، ٥ شعبان ١٢٥٤هـ، مج: ع/ع/ق/١٧٩.

ويشير بيرتون إلى وجود بعض العادات والأعراف المتعلقة بالتمييز الاجتماعي في الزواج بقوله: "**والقبائل الأصيلة كبني حرب، لا يزوجون بناتهم للإخوان**". ويعَرِّف الإخوان بأنهم: القبائل الأقل قوة، لأنهم يدفعون الخاوة(١) للقبائل القوية، حسب قوله(٢).

ويأتي في مقدمة متطلبات المرأة في الزواج الرجولة، والكرم، والشجاعة، والشهرة في الحسب والنسب(٣).

أما أهم متطلبات الشاب في الزوجة؛ فهو أن تكون من أسرة ذات حسب ونسب وقوة وهيبة، وإن كان ذلك على حساب الجمال الجسدي. أما المهر – خصوصاً عند البادية – فهو غالباً يتكون من سجادة كبيرة "قطيفة"، وسوارين من الذهب وبعض الأقمشة أو الملابس الجاهزة، وقد تساق بعض الأغنام أو شيء من الإبل كمهر إضافي، وإن كان ذلك يتوقف على قدرة الشاب وأسرته، وعلى مكانة الفتاة وأهلها(٤).

ويقدر بيرتون المهر بثلاثين دولاراً إسبانياً، تدفع نقداً، أو يُدفع ما يقابلها من الماشية عوضاً عنها(٥). ويظهر أنه يريد بالدولار الإسباني ما يسمى محلياً: الريال الفرنسي(٦).

ويظهر أن المهر ليس ثابتاً، وإنما هو قابل للزيادة والنقص، إذ تشير

---

(١) الخاوة: هي مبلغ نقدي أو عيني يدفعه الطرف الأضعف لطرف أقوى منه لحمايته، أو اتقاء لشره.

(٢) بيرتون، **رحلة بيرتون**، ج٢، ص٢٢٤.

(٣) صبري باشا، **مرآة جزيرة العرب**، ج٢، ص٣٨٤.

(٤) صبري باشا، **مرآة جزيرة العرب**، ج٢، ص٣٨٥.

(٥) بيرتون، **رحلة بيرتون**، ج٢، ص٢٢١.

(٦) الريال الفرنسي: هو ريال ماريا تريزا – وهو التالر النمساوي، اشتهر بين العامة في الجزيرة العربية بالريال الفرنسي، وهو عملة تعادل أوقية من الفضة، سكت لأول مرة عام ١١٩٤هـ / ١٧٨٠م. **تطور النقود في المملكة العربية السعودية**، مؤسسة النقد العربي السعودي، ١٤١٩هـ، ص١٩.

وثيقة محلية في وادي الصفراء إلى دفع ٢٠ ريالاً[١]، وتشير أخرى في وادي الفرع إلى مهر قدره ٩٠ ريالاً[٢]. بينما تشير وثيقة محلية أخرى إلى صداق قدره ١٠٠ ريال فرانسي، منها ٢٠ مقدمة و٨٠ مؤجلة تستحق عند طلب الزوجة، وفي حالة تأخره عن دفعها فإن لها الامتناع عنه مع عدم سقوط حقها، وسقوط حقوقه عليها.

أما عند قبائل حرب وجهينة أهل القرى الزراعية؛ فإن النخلة قد تكون مهراً مثالياً لما لها من الأهمية والقيمة، وقد يسوق الزوج نخلة أو أكثر صداقاً لزوجته، ولذلك أمثلة كثيرة في الوثائق المحلية[٣].

٦- الختان:

الختان سنة تحرص المجتمعات الإسلامية على تطبيقها على الأبناء الذكور في سن مبكر، إلاّ أن بعض الشعوب الإسلامية قد أدخلت عليها بعض الطقوس والعادات الأخرى القاسية أحياناً، كما هو الحال في بعض مناطق الجزيرة العربية. غير أن المجتمع الحجازي بادية وحاضرة لم يخرج عن المألوف في ذلك، وهو إجراء الختان المعتاد مع حفلة فرح تجمع الأقارب والجيران، وتتبادل فيها التهاني والتبريكات، وربما بعض الأهازيج والأشعار الاحتفالية[٤].

ويورد بيرتون أسماء القبائل الحجازية التي تمارس عادة السلخ في

(١) وثيقة محلية، مخالصة بشأن صداق في خيف الحزامي، شهر صفر سنة ١٢٦٥هـ: مج: ع/ع/ع/٢٠٥.

(٢) وثيقة محلية، إثبات مهر زواج في وادي الفرع، ١٥ ربيع الأول ١٢٩١هـ، مج: ع/ع/م/٦٢.

(٣) بوركهارت، **رحلات**، ص٢٨٣؛ وثيقة محلية، بشأن صداق في بلاد العطور من بني عمرو، ١٩ رجب ١٢٥٨هـ، مج: م/ص/س/٢٧.

(٤) رواية الشيخ عتيق الله بن حامد الأحمدي. مقابلة في منزله بتاريخ ١٤٣١/٢/٢٧هـ.

الختان، ولا يذكر من ضمنها أياً من قبائل منطقة المدينة المنورة[١].

ويورد أيوب صبري باشا وصفاً مطولاً لعادة بدو الحجاز في الختان[٢]، إلاّ أن ما أورده - على ما يبدو - يمثل عادة الختان في مناطق أخرى من الجزيرة العربية، ولا ينطبق على منطقة البحث، إذ لا تشير له مصادر تاريخ المنطقة التي أمكن الاطلاع عليها، ولا روايات كبار السن الذين قابلهم الباحث[٣].

مظاهر اجتماعية أخرى:

هناك العديد من المظاهر الاجتماعية التي تعطي لمحات إضافية عن جوانب أخرى من الحياة الاجتماعية في منطقة الدراسة، ومن ذلك على سبيل المثال:

١- وصف المساكن:

يعيش سكان المنطقة مثل بقية سكان الريف الحجازي في تجمعات صغيرة، أو في منازل متناثرة بين بساتينهم ومزارعهم. ويتكون المنزل عادة من غرفتين أو أكثر مبنية من اللبن والطين، بالإضافة إلى باحة خاصة بالماشية[٤].

والطبقات الفقيرة أو غير المستقرة تسكن في عشش مبنية من جريد النخل وجذوعه، أو غرف مبنية من الحجارة تسمى المَدَابة، وجمعها مَدَاب، وقد تستخدم المداب للتخزين – أيضاً – حيث يترك فيها البدو

(١) بيرتون، **رحلة بيرتون**، ج٢، ص٢٣٣.

(٢) صبري باشا، **مرآة الجزيرة**، ج٢، ص٣٨٦-٣٨٩.

(٣) رواية الشيخ عتيق الله، مرجع سابق؛ البلادي، **الأدب الشعبي**، ص٢٠٧.

(٤) بوركهارت، **رحلات**، ص٢٨٣؛ بيرتون، **رحلة بيرتون**، ج١، ص٢٠٦.

الرحل أغراضهم غير المنقولة[١]، وبعض قبائل المنطقة يسمونها: خيمة. وهي منتشرة في جبال الحجاز وأوديته، ولا زال الكثير منها مما لم تعبث به أيدي التخريب شاهداً على تلك الحقبة.

ففي وادي الفرع يتكون البيت – غالباً – من باحة تسمى الحوش، ثم غرفة الرجال والضيوف وتسمى المجلس، وفيها مكان لتحضير القهوة يسمى المشب، وغرفة للنساء، وغرفة تسمى المخزن، ومكان للطبخ يسمى الموقد[٢]. وتسقف البيوت من جذوع النخل، ويفرش عليها الجريد والخوص وهو سقف النخل، ثم تغطى بطبقة من الطين[٣].

٢- المأكولات السائدة:

يعتمد السكان خارج المدن الرئيسة في الحجاز على ما تنتجه أراضيهم من التمر والحبوب، واللحوم. ويمثل اللبن والحليب عنصراً أساسياً من عناصر غذائهم اليومي إلاّ في حال انعدام المواشي لديهم، أو هزالها في سنوات الجدب والقحط، ويعدُّ الجراد وجبة مفضلة. وفي حال السفر والترحال فإن اللحم المجفف (القديد) والأقط والتمر هو غذاؤهم المفضل[٤]، إضافة إلى الخبز المحلي المصنوع من طحين القمح أو الذرة.

كما يسود عند أهل القرى استعمالات أخرى لطحين القمح والذرة، فيتفننون في عمل الأكلات والأحسية التي تأخذ أسماء متعددة حسب حالة طبخها ومكوناتها الأخرى، ومن ذلك ما يسمى الرشوف والرغيدة

---

(١) بيرتون، **رحلة بيرتون**، ج١، ص٢٠٦: البليهشي، **وادي الفرع**، ص٣٢٣.

(٢) وثيقة محلية، إثبات عطاء مخزن وموقد في منزل بوادي الفرع، ٥ رجب ١٢٥٤هـ، مج: م/ع/ر/٧١.

(٣) البليهشي، **وادي الفرع**، ص٣٢٢.

(٤) بيرتون، **رحلة بيرتون**، ج٢، ص٢٢٦-٢٢٧.

والعصيدة، والشوربة، والمرقوق، والفطير، والخواضة، والسويق، وغيرها[١].

ومع أن شرب الخمر غير شائع في المناطق الريفية والبدوية، إلاّ أن عادة التدخين من أسوء العادات التي يزاولونها[٢].

ومع شح الموارد؛ فإن سكان القرى وأهل الصحراء الذين يعد الكرم من أهم سجاياهم العربية يحرصون على تقديم أفضل ما لديهم من الزاد لضيوفهم، إذ يقدمون للضيف التمر والزبدة واللبن، والخبز المفروك بالسمن[٣].

ولتناول الطعام عند بادية الحجاز أعراف وآداب مرعية يجري تطبيقها بصرامة، من ذلك هيئة الجلوس بافتراش الرجل اليسرى وإقامة الرجل اليمنى، وعدم البدء بالأكل قبل أن يبدأ كبار القوم أو الضيوف، والأكل مما يليه، وعدم النهوض قبل الضيف، وما إلى ذلك[٤].

واشتهر عموم أهل الحجاز بحب شرب القهوة، والتفنن في إعدادها ونظافة أدواتها، وأصبح تقديمها للضيوف من العادات الراسخة لقلة مؤونتها[٥]. كما أنهم يتفننون في طريقة صَبِّها، وشربها، فلا بد من مد الفنجان باليد اليمين واستلامه باليمين، والبدء من اليمين أو بأكبر

---

(١) البلادي، **الأدب الشعبي**، ص٢٤٨-٢٥٢؛ البليهشي، **وادي الفرع**، ص٣٤٣؛ الحازمي، **جذور وتراث**، ص٩٣.

(٢) بيرتون، **رحلة بيرتون**، ج٢، ص٢٧، وص١٥٠.

(٣) صبري باشا، **مرآة جزيرة العرب**، ج٢، ص٣٦٧؛ البلادي، **الأدب الشعبي**، ص١٨١.

(٤) البلادي، **الأدب الشعبي**، ص٢٥٣.

(٥) نواب، **كتب الرحلات**، ص٤٣٠؛ مشارقة، **الحياة الاجتماعية عند البدو**، ص١٧٥؛ الحازمي، **جذور وتراث**، ص١٠٨-١٠٩.

الأضياف قدراً[(١)].

ويستفاد من المكاتبات المحلية أن للقهوة العربية مكانة خاصة عندهم، ويظهر ذلك من خلال تكرار ذكرها في وثائق المبايعات باعتبارها أحد أهم سلع التبادل التجاري المحلي. ولأهميتها فإنهم إذا توجهوا إلى شخص بطلب معين امتنعوا عن شرب قهوته لحين استجابته لهم[(٢)].

ويشير بوركهارت إلى وجود محلات "مقاهٍ" تباع فيها القهوة لعابري الطريق في وادي الصفراء[(٣)].

٣- الملابس والحلي:

يذكر ليون روش الرحالة الفرنسي الذي زار الحجاز عام ١٢٥٧هـ (١٨٤١ / ١٨٤٢م) أن ملابس السكان هي الملابس العربية المعروفة عند البدو في الجزيرة العربية، إذ يضعون على رؤوسهم الكوفيات المخططة بالأصفر والأخضر، وعباءة من الصوف أو من الكتان، وقفطاناً من كتان أو قطن أو من حرير، حسب وجاهة الشخص، والقفطان مشدود في وسط الجسم بحزام من الجلد[(٤)].

كما يصف الملابس الأساسية للبدوي في الحجاز: بأنها تتمثل في ثوب، وقميص من قماش الكاليكو، يصل من الرقبة إلى الكاحل له أكمام

---

(١) البلادي، **الأدب الشعبي**، ص١٨٩-١٩٠.

(٢) وثيقة محلية، طلب تنازل عن مستحقات في وادي الفرع، ١٤ جمادى الآخرة ١٢٦٨هـ، مج: أ/م/ط/١٤؛ إثبات صلح في وادي الصفراء، ٢٨ ربيع الثاني ١٢٨٢هـ، مج: م/ع/ط/١٠٥.

(٣) بوركهارت، **رحلات**، ص٣٦٩.

(٤) Roches, V. 2, p. 65؛ **الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية**، ص٢٦١.

محكمة واسعة، ومفتوح من ناحية الصدر، والحِقو، وحزام جلدي عريض، يُشدُّ حول الوسط، وفي الشتاء يلبس الشيوخ فوق قمصانهم عباءات تصنع في نجد والأحساء، وهي على أربعة ألوان: أبيض، وأسود، وأحمر، وبُنيٌّ مخطط، وأفضلها ما كان يصنع من وبر الإبل، فقد يبلغ ثمنها خمسة عشر دولاراً، وأقلها قيمة ما يصنع من صوف الغنم، وتساوي ثلاثة دولارات فقط، أما المِحْرَمَة[١] والكوفيات[٢]؛ فتأتي من سوريا[٣].

أما الصنادل (الأخفاف)؛ فأنواع كثيرة تتراوح بين ما هو من الجلد إلى أحذية مكة الجميلة الراقية، ويتراوح ثمنها من قرش إلى دولار، أما الفقراء فيمشون حفاة[٤].

ويذكر بيرتون عن بَدَوِيَّيْن فقيرين من حرب: أنهما كانا يلبسان نعلين من جلد سميك يخرج منهما سيور يلفانها حول كواحلهما[٥].

والمشهور أن الناس في وادي الفرع يلبسون الثياب التي تزينها بعض الزركشات في منطقة الصدر، وهذه الثياب تمتاز بالأكمام الطويلة المفتوحة من أحد طرفيها، وهي ما يسمى في نجد بالمرْوَدَن، وغالباً ما تصبغ الثياب بالحمرة أو أي لون آخر من الألوان التي تصنع محلياً[٦].

والنساء في بادية الحجاز يلبسن أثواباً داكنة، لكنها أكثر اتساعاً واحتشاماً، ويغطين رؤوسهن بخمر سوداء، وغالب النساء في منطقة البحث

---

(١) ويعني بها غطاء الرأس وهو ما يسمى العمامة أو الغترة.

(٢) ويعني بها الغترة المخططة وهي الشماغ.

(٣) بيرتون، **رحلة بيرتون**، ج١، ص١٩٣، وج٢، ص١٢٥؛ البليهشي، **وادي الفرع**، ص٣٢٨.

(٤) المرجع السابق نفسه.

(٥) بيرتون، **رحلة بيرتون**، ج١، ص٢٠١.

(٦) البليهشي، **وادي الفرع**، ص٣٢٨.

يلبسن البراقع[١]. ولهذا؛ فإن البرقع – غالباً – ما يزين بقطع من الفضة المطرزة، أو الخرز والودع والنقود الفضية[٢].

وللبرقع مكانة رفيعة لدى المرأة؛ إذ يتكرر ذكر البراقع في المبايعات المحلية، حيث تعتز المرأة ببرقعها وتمسحه بيدها وتقول: ألزمت برقعي، تعبيراً عن العزم على الوفاء والصدق، كما يمسح الرجل لحيته أو وجهه إذا أراد التعبير عن الالتزام واحترام المواثيق[٣].

وإذا كانت المرأة كبيرة في السن؛ فقد تكتفي بالملثم على فمها دون البرقع[٤].

أما الحُلِي التي تصنع من الذهب أو الفضة؛ فأشهرها: القلائد للعنق والصدر وأشهرها اللبة وهي قلادة من الخرز والفضة، والمِشنقة.، وحلقات الأنف، وهو ما يسمى بالزمام أو الفرْدَة (بفتح الفاء وإسكان الراء)[٥].

والأسورة ومنها البناجر للذراع، والمعاضد (جمع معضد) للعضد، والخلاخيل وتلبس أسفل الساق، والحلَق للأذن، والرشوش للصدر، والخواتم

---

(١) كارستن نيبور، **رحلة إلى شبه الجزيرة العربية وإلى بلاد أخرى مجاورة لها**، ترجمة: عبير المنذر، (بيروت: مؤسسة الانتشار العربي، ٢٠٠٧م)، ج١، ص٢٤٠؛ بيرتون، **رحلة بيرتون**، ج٢، ص٢٢٦.

(٢) البليهشي، **وادي الفرع**، ص٣٣٩.

(٣) وثائق محلية، عطاء وهبة شرعية لامرأة من بني عمرو أهل وادي الفرع، ٥ رجب ١٢٥٤هـ، مج: م/ع/ر/٧١؛ وثيقة عطاء أخرى في وادي الفرع، ١٣ جمادى الآخرة ١٢٥٩هـ، مج: أ/م/ط/١٤؛ وثيقة عطاء وهبة شرعية بوادي الفرع، ١٦ شعبان ١٢٦٥هـ، مج: ع/ح/ع/٥؛ مبايعة في وادي الفرع، ٨ ربيع الأول ١٢٦٨هـ، مج: أ/م/ط/١٤؛ عطاء في وادي الفرع، ٢٣ شعبان ١٢٩٠هـ، مج: ع/ح/ع/٥.

(٤) وثيقة محلية، هبة شرعية بوادي الفرع، ١٢ شوال ١٢٦٥هـ، مج: أ/م/ط/١٤.

(٥) بيرتون، **رحلة بيرتون**، ج٢، ص٢٢٦؛ الحازمي، **جذور وتراث**، ص١٠٢.

للأصابع[١].

٤- الألعاب الشعبية:

مثل أي مجتمع إنساني؛ فإن المجتمع الريفي والقبلي في براري المدينة المنورة يمارس الكثير من مظاهر التسلية والترفيه البريء الذي يناسب طبيعة حياته القاسية. وفي حياة مليئة بمظاهر التطاحن ورائحة البارود والنزاعات المسلحة التي تكاد أن تكون جزءاً من الحياة اليومية، مما يتطلب إظهار القوة والتحدي، تأتي العرضة الحربية التي تقوم على اللعب بالسيف والأسلحة النارية مع ترديد أشعار الحرب والحماس في مقدمة الألعاب التي يمارسها بدو الحجاز عموماً[٢].

وغالباً فإن العرضة الحربية، وكثيراً من الألعاب الغنائية في الاحتفالات والمناسبات تكون مصحوبة بالطبل أو الزير، كما يشيع استخدام الربابة ذات الوتر الواحد[٣].

كما يمارس الأطفال والصبيان أنواعاً كثيرة من الألعاب الشعبية، مثل لعبة المطارَح، وهي لعبة تعتمد على القوة الجسدية، قريبة من رياضة المصارعة، ولعبة المسابق (السباق)، ولعبة عظم وضاح أو عظيم ضاح[٤]، وهي لعبة ليلية تعتمد على السرعة وحدة البصر، إذ تقوم على البحث عن عظمة صغيرة تُرمَى باليد إلى أبعد مسافة ممكنة، والفائز هو من يعثر عليها أولاً ويعود بها إلى خط البداية بسلام[٥]. وهناك ألعاب أخرى مثل الطاب، وهي

---

(١) البليهشي، **وادي الفرع**، ص٣٤٠.

(٢) بيرتون، **رحلة بيرتون**، ص٢١٨؛ البلادي، **الأدب الشعبي**، ص٢١٠-٢١٤.

(٣) بيرتون، **رحلة بيرتون**، ص٢١٨؛ الحازمي، **جذور وتراث**، ص٩٤.

(٤) والبعض يسميها: مظيمضاح. البلادي، **الأدب الشعبي**، ص٢٣٥؛ البليهشي، **وادي الفرع**، ص٣٣٦.

(٥) البليهشي، **وادي الفرع**، ص٣٣٦.

عبارة عن أربعة أعواد مصنوعة من جريد النخل، والزقطة، وهي لعبة تتكون من خمس حصوات صغيرة يتبارى الأطفال في قذفها وإمساكها بمهارة[١].



(١) البلادي، **الأدب الشعبي**، ص٣٢٧؛ الحازمي، **جذور وتراث**، ص٩٤.